أحاديث إصلاح القلوب

(٤٥)

الخوف من النِّفاق

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**»(١). متَّفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ؛ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»(٢). متَّفق عليه.

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ «**تِلْكَ صَلَاةُ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩).

الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»[١]. رواه مسلم.

النِّفاق من سيِّء خصال القلوب وقبيح صفاتها، وهو إظهار ما لا يبطن الإنسان؛ فإن كان هذا الإظهار لخلاف ما يبطن يتعلَّق بالاعتقاد، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون:١]؛ فهذا نفاق اعتقاديٌّ وهو كفر أكبر ناقل من الملَّة، وأمَّا إذا كان إظهار الإنسان ما لا يبطن يتعلَّق بالأعمال كأن يُظهر أنَّه صادق وهو في قلبه يبطن الكذب، أو يظهر الوفاء بالوعد وهو في قلبه يبطن عدم الوفاء؛ فهذا نفاق عمليٌّ.

وفي القرآن الكريم آي كثيرة في ذمِّ النِّفاق والمنافقين وذكر صفاتهم وأعمالهم، وفيه سورة عظيمة تسمَّى (الفاضحة)؛ وهي من أواخر سور القرآن نزولًا؛ ألَا وهي سورة التَّوبة، وقد فضح الله جلَّ وعلا فيها المنافقين، وهتَك أستارهم، وبيَّن فضائحهم ومخازيهم، وأخرج جلَّ وعلا ما يُبطنون في قلوبهم وصدورهم من حقدٍ وكيدٍ وحسد للإسلام وأهله.

---

(١) رواه مسلم (٦٢٢).

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه السُّورة تسمَّى الفاضحة؛ فاضحة المنافقين»[(١)].

وقد كان من شأن المنافقين وحالهم إذا خلا بعضهم إلى بعض اجتمعوا على الاستهزاء بالدِّين، والسُّخرية بعباد الله المؤمنين، والتَّهكُّم بأعمال الدِّين العظيمة وطاعاته الجليلة وعباداته الفاضلة، والاستهزاء بمَن كان متمسِّكًا بدين الله محافظًا على طاعة الله، ثمَّ إذا ختموا مجلسهم تخوَّفوا وحاذَروا أن تُنزَّل سورة تفضحهم وتهتك سترهم وتبيِّن مخازيهم، قال الله تعالى: ﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴾ [التَّوبة:٦٤].

فنزلت سورة التَّوبة فاضحة للمنافقين؛ ولهذا ورد فيها في مواضع عديدة ذكرُ أوصاف المنافقين بقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ [البقرة:٣]، أو قوله: ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ [البقرة:٧٨]، ثمَّ يذكر صفاتهم.

ولقد كان فضْح المنافقين في هٰذه السُّورة فضحًا لهم بذكر أوصافهم ونعوتهم وخصالهم وخلالهم دون ذكرٍ للأسماء؛ وذلك ليبقى الأمر حُكمًا عامًّا إلى قيام السَّاعة في كلِّ مَن كان متَّصفًا بصفات المنافقين.

ولذا وجب على كلِّ مسلم أن يكون في غاية الحذر من النِّفاق وأعمال المنافقين وصفاتهم؛ فإنَّ الله إنَّما ذكرها في كتابه لتُتَّقى وليُحذر من الوقوع في

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في التَّفسير (١٠٠٤٥).

شيء منها، وعلى المسلم أن يكثر من دعاء الله أن يعيذه من النِّفاق ومن أوصاف المنافقين.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَالْقَسْوَةِ، وَالْغَفْلَةِ وَالْعَيلَة وَالذِّلَّة وَالْمَسْكَنَة، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْكُفْرِ، وَالْفُسُوقِ، وَالشِّقَاقِ، وَالنِّفَاقِ وَالسُّمْعَةِ، وَالرِّيَاءِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الصَّمَمِ وَالْبَكَمِ وَالْجُنُونِ، وَالْجُذَامِ، وَالْبَرَصِ، وَسَيِّئِ الأَسْقَامِ**»[(١)]. رواه الحاكم.

ولقد وصف الله جَلَّ وَعَلَا المؤمنين الكمَّل من عباده بصفاتٍ عديدة دالةٍ على كمال دينهم وقوَّة إيمانهم وحُسن معرفتهم بربِّهم وتمام محافظتهم على الإيمان في سورة من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ اسمها «المؤمنون»، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١].

ومن هذه الصِّفات: خشيتُهم من الله وذلك لحُسن معرفتهم به جلَّ في علاه، ومنها وجَلُهم وخوفهم على إيمانهم؛ لأنَّه أثمن شيء يملكونه وأغلاه

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١٩٤٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١٢٨٥).

وأعلاه، فكان خوفهم على الإيمان أشدَّ من الخوف على أيِّ شيء آخر لعظم مكانة الإيمان في قلوبهم. وقد جمع الله لهم حُسن الإيمان والعمل مع الخوف والوجل من أن لا يُقبل الإيمان أو أن يُردَّ العمل؛ وهذه حال المؤمن كامل الإيمان، كما قال الحسن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ جَمَعَ إِحْسَانًا وَشَفَقَةً، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ جَمَعَ إِسَاءَةً وَأَمْنًا»(١).

ومَن يتأمَّل في سيَر السَّلف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ورحمهم مع ما كانوا عليه من هديٍ عظيم وإيمان قويم وحُسن صلة بالله جلَّ في علاه يجد في الوقت نفسه خوفًا شديدًا قام في قلوبهم على إيمانهم ودينهم من أن تتبدَّل القلوب أو يتغيَّر الإيمان أو يتحوَّل الحال إلى النِّفاق.

نعم! مع كمال إيمانهم وقوَّة دينهم كانوا يخافون على قلوبهم من النِّفاق خوفًا شديدًا، وقد جاءت نقولٌ متكاثرة في كتب الحديث والسِّيَر شاهدة لذلك دالَّة عليه:

قال عبد الله بن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت ثلاثين صحابيًّا كلَّهم كان يخاف النِّفاق على نفسه»(٢).

---

(١) رواه ابن المبارك في الزُّهد والرَّقائق (٩٨٥).

(٢) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٨)، ووصله في ابن أبي خيثمة في تاريخه (٦٥١)، انظر: تغليق التَّعليق (٢/ ٥٢).

وجاء عن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وهو مَن هو في الإيمان والدِّين- أنَّه أتى حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «أنشدك بالله هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ؟ -يعني في المنافقين-» قال: «لا، ولا أزكِّي بعدك أحدًا».

وجاء عن جبير بن نُفير وهو من علماء التَّابعين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أتيت أبا الدَّرداء وكان يصلِّي، فلمَّا كان في آخر صلاته بعد التَّشهُّد وقبل أن يسلِّم، سمعته يتعوَّذ بالله من النِّفاق ويُكثر من ذلك فقلت له: «وما لك يا أبا الدَّرداء أنت والنِّفاق!!» أي: مكانتك عظيمة وأنت صحابيٌّ جليل، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «دعنا عنك فوالله إنَّ الرَّجل ليتقلَّب عن دينه في السَّاعة الواحدة فيُخلع منه إيمانه»(١).

وجاء عن الحسن البصريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّه قيل له: إنَّ ناسًا يقولون: «لا نفاق»، فقال: «لأن أعلم أنِّي بريء من النِّفاق أحبُّ إليَّ من طلائع الأرض ذهبًا»(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله ما أصبحَ ولا أمسى مؤمن إلَّا وهو يخاف النِّفاق على نفسه»(٣).

---

(١) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٦٨).

(٢) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٦٧).

(٣) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٨٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما خافه -أي: النِّفاق- إلَّا مؤمن ولا أمِنَه إلَّا منافق»[١].

وقيل له رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أتخاف النِّفاق؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وما يؤمِّنني وقد خافه عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[٢].

وقال معاوية بن قُرَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن أكون ليس فِيَّ شيء من النِّفاق أحبَّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها، كان عمر يخشاه ولا أخشاه أنا!!»[٣].

وقال أيُّوب السّختيانِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلُّ آية في القرآن فيها ذِكر النِّفاق فإنِّي أخافها على نفسي»[٤].

فهذه نَبْذٌ يسيرة من سيرة القوم رحمهم الله ورضي عنهم، فهم مع كمال إيمانهم وتمام عبادتهم وحُسن صلتهم بالله جلَّ في علاه يخافون من النِّفاق خوفًا شديدًا، بخلاف مَن كان مضيِّعًا مُفَرِّطًا متهاونًا متكاسلًا غير مبالٍ بأمور الإيمان وأعماله وخصاله، ثمَّ هو في الوقت نفسه يرى أنَّه في سلامة تامَّةٍ من النِّفاق وأنَّ إيمانه لم يحصل له ما يثلُمه أو يُنقصه.

وعندما نتأمَّل في النُّصوص الواردة في علامات النِّفاق وصفات

---

(١) رواه البخاريُّ تعليقًا (١/ ١٨)، ووصله ابن حجر في تغليق التَّعليق (٢/ ٥٣).

(٢) رواه الذَّهبيُّ في تذكرة الحفَّاظ (٢/ ٣٠).

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٩/ ٢٧٢).

(٤) رواه الفريابيُّ في صفة النِّفاق وذمِّ المنافقين (٨٦).

المنافقين؛ كقول الله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النِّساء:١٤٢-١٤٣]. وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ؛ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ**»(١). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ؛ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**»(٢)؛ فذكر من صفة المنافق تأخير الصَّلاة عن وقتها، والإتيان بها نقرًا، وقلَّة ذكر الله فيها. قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ستُّ صفات في الصَّلاة من علامات النِّفاق: الكسل عند القيام إليها، ومراءاة النَّاس في فعلها، وتأخيرها، ونقرها، وقلَّة ذكر الله فيها، والتَّخلُّف عن جماعتها»(٣). وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»(٤). وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَكِرُّ فِي هَذِهِ مَرَّةً وَفِي هَذِهِ**

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) رواه مسلم (٦٢٢).

(٣) انظر: الصَّلاة لابن القيِّم (ص٢٨٤).

(٤) رواه البخاريُّ (١٧)، ومسلم (٧٤).

مَرَّةً»[(١)]. روى هذه الأحاديث الأربعة مسلم في صحيحه.

مَن يطالع هذه النُّصوص المشتملة على صفات المنافقين وغيرها ممَّا ورد في هذا الباب؛ يجد أنَّ في النَّاس مَن يكون متَّصفًا بهذه الصِّفات أو ببعضها أو بكثيرٍ منها أو بها وبزيادةٍ عليها وهو في الوقت نفسه يرى أنَّه في سلامةٍ تامَّةٍ من النِّفاق ومن أوصاف المنافقين، وأنَّ إيمانه لا نقص فيه ولا ثلْم، فشتَّان بين حال المؤمنين الكمَّل وبين من ضيَّعوا إيمانهم وفرَّطوا فيه.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في شرحه لباب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر من صحيح البخاريِّ-: «وأصل هذا يرجع إلى ما سبق ذكره أنَّ النِّفاق أصغر وأكبر؛ فالنِّفاق الأصغر: هو نفاق العمل وهو الَّذِي خافه هؤلاء على أنفسهم؛ وهو باب النِّفاق الأكبر، فيخشى على مَن غلب عليه خصال النِّفاق الأصغر: في حياته أن يخرجه ذلك إلى النِّفاق الأكبر حتَّى ينسلخ من الإيمان بالكُلِّيَّة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصَّف:٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام:١١٠]»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للأربعين: «فالمؤمن يخاف على نفسه النِّفاقَ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٨٤).

(٢) فتح الباري لابن رجب الحنبليِّ (١/ ١٩٥).

الأصغرَ، ويخاف أنْ يغلب ذلك عليه عندَ الخاتمة، فيخرجه إلى النِّفاق الأكبر، كما تقدَّم أنَّ دسائس السُّوء الخفيَّة تُوجِبُ سُوءَ الخاتمة، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يُكثرُ أنْ يقول في دعائه: «**يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»، فقيل له: يا نبيَّ الله آمنا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ فقال: «**نَعَمْ، إِنَّ القُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ**»(١). خرَّجه الإمام أحمد والتِّرمذيُّ من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»(٢).

نسأل الله أن يعيذنا من النِّفاق، وأن يزكِّي قلوبنا، ويصلح سرائرنا، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه أحمد (١٢١٠٧)، والتِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٤).